العادات السيئة

وكيف تنشأ

كيف تنشأ العادة فى مجموعة من الناس ؟

قد يكون الجواب أن توهم المصلحة هو الذى تنشأ به العادة ، فاذا صح ذلك أمكن أن يكون لهذا التوهم سلطان يختلف قوة وضعفا بقدر ما يكون لهذه المجموعة البشرية من حظ فى سلم الرقى ، وإذن فكلما كانت الجماعة من الناس أقرب إلى السذاجة ، أى إلى طفولة الاجتماع ، كانت أكثر خضوعا لما يخيله لها توهم المصلحة .

وفى العادات حسن وقبيح ، وفيها نافع وضار ، ولكنها تختلف فى ذلك باختلاف الشعوب والأجيال ، فقد يرى جيل من الناس أو أمة من الأمم أن المصلحة فى عادة معينة فترضاها وتحرص عليها ، فى حين أن هذه العادة نفسها تبدو لأمة أخرى أو جيل آخر ضارة أو لا نفع فيها ولا ضرر فتستنكرها وترى فى اعتيادها نقيصة أو عارا .

ونحن لنا عادات وفينا تقاليد ، وهى فاشية عندنا ، ما كان منها مستحسنا وما كان غير مستحسن ، فأما المستحسن فالرجاء فى بصيرة الأمة وسلامة حسها أن تحافظ عليه حتى لا يجرفه سيل العادات الأجنبية المؤذية ، وأما غير المستحسن فمنه عادات موغلة فى القدم كالخروج إلى المقابر فى مواسم الشهور والأعوام على صورته المعروفة ، ولحوق النساء بالجنازات فى مناظرهن المعيبة ، وتسويدهن الخدود والأيدى بالصباغ الأسود ، ووضعهن التراب على الرءوس إظهارا للحزن على الموتى ، ومنه ذبح الجواميس والعجول أمام النعوش على عتبات الدور وعند القبور ، وإقامة المناحات للندب واللطم ، وتشييع الجنازات بالموسيقى المكتئبة أو بالطبول والمزامير ، ومنه تخلية الرجال بينهم وبين نسائهم عاما أو بعض عام كلما أصيبوا بفقد عزيز محبوب ، وهذه عادات فيها الشر والسوء حين لا خير فيها ولا معنى لها ، والواقع أن بعضها انقرض أو كاد ينقرض ، ولكن أكثرها لا يزال سلطانه قويا فى كثير من الجهات .

ومن عاداتنا ما هو قديم غير موغل فى القدم ، كرقية عاشوراء ، وكعك العيد ، وزفة العرائس والعرسان فى الشوارع العامة ، وحفلة الزار التى تقام فى البيوت أو فى بعض الأضرحة ، وكهذه العادات التى أخذناها عن المتغلبين من مختلف الأجناس الأسيوية ، وممن كانوا يجلبونهم من بلاد شرق أوربا وجنوبها ثم لا يلبثون أن يصبحوا سادة يتبعهم أجدادنا الطيبون بالتقليد والمحاكاة .

وقد أخذت تتكون فينا الآن عادات جديدة لا ترجع إلى أصل من التغلب وسيادة الأمر والنهى أكثر مما ترجع إلى توهم المصلحة وخطأ التقدير وفساد التقليد ، حتى كأننا هبطنا فى سلم الرقى الاجتماعى إلى الدرجة التى لم تتجاوزها الجماعات البشرية الساذجة . وإذا أردت مثالا فى هذا المقام فتذكر عادة الرقص على الجازبند ، أليست هى عادة نقلتها عن همج أمريكا حماقة المدنية الغربية ؟ وهل هى إلا صورة لما يفعله الهمج الآخرون فى النواحى المظلمة من بقاع الأرض ؟ !

بل انظر إلى هذه العادة التى أخذت تزحف علينا والتى بدأت تضيع إنسانية الانسان فى بهيميتها المتمردة ، كلما حمى وطيسها فى حفلات الليل فاختلطت صور بنى آدم وبنات حواء اختلاط السمك فى البحر ؛ أليست هى عادة ترجع بمن يظنونها غاية قصوى من غايات التقدم والرقى إلى مضاجع الوحشية المتخبطة ومهاوى الجهالة العمياء ؟

ومثل العادة العادة فى القبح وسوء الأثر كل عادة فردية تلازم شخصا واحدا و يلازمها ، فقد يألف الشخص الواحد عادة فى كلامه أو فعله أو حركته فلا يفارقها ولا تفارقه ، حتى إذا تحدث الناس عنه ذكروه من أجلها بالسوء ، لا لأنه مصاب بهذه العادة فقط بل لأنه يصيب المجتمع منها بما يضره و يؤذيه ، فهذا الذى يلقى فضلات أنفه وفمه فى الطريق العام أو فى المجتمع الخاص ، وهذا الذى يضع رجيع بطنه تحت جدران البيوت أو على الأرض الفضاء أو فى الماء الراكد أو الجارى ، وهذا الذى يترك أهل بيته يلقون من الشبابيك أوساخ البيت من كل سائل و يابس ، وهذا الذى يرضيه أن يحمل خادمه كناسة الدار وقذارة المطبخ فيلقيها فى الشارع ، وهذا الذى يقطع عليك حديثك ليتحدث هو بما يشاء ، وهذا الذى يسبقك إلى السلعة التى انتقيتها لنفسك ليأخذها لنفسه ، وأمثال هؤلاء ممن تجرى فيهم سيئات الأفعال والأقوال مجرى العادة الثابتة والخلق المقيم ، كلهم مصابون من ذلك بعادات تجعلهم نكد المجتمع ومصدر العدوى فيه ومضرب المثل السيئ والقدوة الضارة .

وقد سمعنا منذ حين طويل أن عناية الادارة الدينية العامة اقتضت تأليف لجنة ناطتها بالنظر فى أمر البدع السيئة التى يتوهم عامة الناس أن لها أصلا فى الدين ، وكان المفهوم أن وراء هذه اللجنة غرضا طيبا هو إبراء المجتمع الاسلامى من عناصر الضعف والتخاذل و إنقاذ سمعة الاسلام من الظلم الذى تجره عليها نسبة هذه البدع إليه ، ولكن أين هذه اللجنة الآن ؟ ماذا فعلت وأية نتيجة من الخير انتهت إليها ؟

على أننا نذكر ان ظروف الحرب الماضية قضت فى إحدى سنواتها أن تبعث الحكومة إلى الحياة منشورا رسميا قديما اسمه "منشور مصادرة البدع والخرافات" وكان ذلك استجابة إلى رغبة أظهرتها المشيخة الأزهرية يومئذ ، فلما بعثوا هذا المنشور من قبره أذاعته وزارة

الداخلية وأذاعت معه أمرا يقضى أن يسهر البوليس على تنفيذه بجد واستمرار ؛ أفلا يحسن الآن ونحن مقبلون على ميادين الاصلاح الاجتماعى بهمة ونشاط أن يبعث منشور البدع والخرافات مرة أخرى ؟

ومن عجيب ما شاهدناه أن لحكم العرفى فى بعض نواحى الإصلاح أثرا لا نزال نتمنى أن يلتفت إليه القانون العادى، ففى سنوات الحرب الماضية أبطلت السلطة العسكرية بعض العادات السيئة وجعلت لبعضها الآخر قيودا تضعف شرها ، وكان ذلك خشية أن يصاب الجنود بضررها أو يؤدى اجتماع الجماهير حولها إلى الخروج عن مظهر السكينة الشاملة التى كانت مطلوبة يومئذ ، ولكن هذا الحكم العسكرى لم يكد يتقلص ظله حتى رجع بعض العادات التى أبطلها أفظع مما كان ، ومن الأمثلة على ذلك رقص البطن ونحوه مما يقع تحت السمع والبصر فى مجازر الأخلاق ومصارع الكرامة والشرف .

ويبقى الآن أن نرى كيف نعالج ما فينا من العادات والبدع التى لا يستغنى المصلحون عن معالجتها .

وعندنا أن علاج العادات والبدع العامة يكون من طريقين : أحدهما طريق القانون على شرط أن يعطى ضمانا لتنفيذه من الجد والاستمرار وصدق الرقابة على المنفذين ، والثانى طريق الوعظ الهادئ المقنع، والدلالة على المصلحة والمضرة بالحجة اللينة المقبولة، أما العادات الشخصية فعلاجها فى الناشئين وقايتهم منها، والتربية القويمة هى لا سواها طريق الوقاية، وعلاجها فيمن تجاوزوا عهد التربية محاولة حملهم على تركها بأن تتناولها ألسنة الإرشاد العام فتظهر ما فيها من أذى يعود على أصحابها وعلى الناس .»